كان شاعر البلاط الأموي وطبيبهم .. كما كان موسيقيا مبدعا

ابن فرناس.. طائر حلم أن يُحلّق

عباس بن فرناس أحد علماء العرب البارزين، يعرفه الصغار من خلال القصص التي رويت لهم عن أول إنسان حلم أن يحلق مثل الطيور في الفضاء، وخاض هذه التجربة العملية بالفعل وعلى الرغم من فشله في الطيران إلا أنه فتح أذهان الكثيرين على فكرة الطيران نفسها، ولكن ليس الطيران فقط هو الذي ميز ابن فرناس فقد كان دارساً وعالماً بالعديد من العلوم.

جاء الإمام ابن فرناس بالعلوم والصناعات والآداب المختلفة ليشكل منه حالة من التميز والإنفراد بين علماء عصره، مما جعل الناس يطلقوا عليه لقب «حكيم الأندلس».

نشأته

أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرتي أحد عباقرة الفيزياء والأدب والفن في الأندلس، لم يذكر في كتب التاريخ تاريخ ميلاد محدد لهذا العالم ويقال أن ولادته جاءت في نهاية القرن الثاني الهجري حوالي عام 194هـ، وجاءت وفاته عام 274هـ – 884م.

يعود أصل ابن فرناس إلى برارة «تاكرنا»، ونشأ وترعرع بين ربوع قرطبة التي كانت في هذا الوقت قبلة للراغبين في التزود بالعلوم، حيث كانت منارة للعلم والفن والأدب يفد إليها الناس من شتى البلدان لينهلوا من علم علمائها، وكان لابن فرناس الحظ أن ينشأ في هذه البيئة المفعمة بالعلوم والفنون والصناعة.

علمه

تعلم ابن فرناس القرآن الكريم، ومبادئ الدين الحنيف في كتاتيب قرطبة، وكان متفتح الذهن واسع المدارك أقبل على حلقات العلم بمسجد قرطبة، منصتاً للجلسات والمناظرات العلمية، حريصاً على أخذ العلم عن علماء الأندلس من طريف ما أخذوه من علماء المشرق.

حرص ابن فرناس على أن يخوض في مختلف العلوم فقصد المجالس الأدبية، ومجالس شعراء الأندلس فأستمع إلى النثر والشعر من الأدباء والشعراء بالإضافة إلى ما كان يلقى في هذه المجالس من غريب الأخبار، ودقائق اللغة، كما كان ابن فرناس كثير التردد على أصحاب الفنون الرفيعة يراقب الآلات الموسيقية ويستمع إلى الألحان التي تصدرها عندما يعزف عليها الأفراد.

وبالإضافة للشعر والأدب والفن، خاض ابن فرناس في مجالات أخرى مختلفة تماماً فدرس مصنفات في الطب وقرأ خصائص الأمراض وأعراضها وتشخيصها، كما طالع طرق الوقاية منها وعلاج المصابين، واتجه للطبيعة ليبتكر منها طرق جديدة للعلاج فدرس خصائص الأحجار والأعشاب والنباتات، واستخلص منها مواد مفيدة للعلاج، وكان يتجه إلى الأطباء والصيادلة ليتناقش معهم في كل ما يخص هذه المهنة الجليلة.

بلغ ابن فرناس من الشهرة في مجال الطب الأمر الذي جعل الأمراء الأمويون يتخذونه طبيباً خاصاً لمعالجة أسرهم والإشراف على صحتهم وطعامهم، وتوعيتهم إلى أنسب الطرق للمعالجة من الأمراض.

متبحراً في مختلف العلوم

عاش ابن فرناس حياته وكأنه يكره أن يكون هناك علماً لا يكون هو ملماً به، فبالإضافة لما سبق أضاف لنفسه دراسة الفلسفة والمنطق والنجوم والعلوم الروحانية، وجمع المصنفات التي تبحث في هذه العلوم، والتي كان يصعب الحصول عليها، فعمد إلى قراءتها قراءه علمية دقيقة فاحصة، فاستفاد منها وأفاد غيره.

اشتغل ابن فرناس بعلم النحو وقواعد الإعراب، وصار واحداً من نحاة عصره في ربوع الأندلس، يؤخذ عنه ويعول عليه، مما دفع الزبيدي صاحب الطبقات إلى تصنيفه في الطبقة الثالثة من نحاة الأندلس وقد قال عنه « كان متصرفاً في ضروب من الإعراب».

ولم يكتفي ابن فرناس بما درسه من علوم ولكنه اتجه لأصحاب الصناعات الدقيقة، فيتأمل أعمالهم ويحاول التعلم منهم، وبالفعل اقتبس منهم الكثير من أسرار الصناعات وهو الشيء الذي ساعده في إبراز ما تعلمه مما يحتاج إلى صناعة الآلات العلمية الدقيقة.

التطبيق العملي

لم يكن ابن فرناس كغيره من العلماء الذين يأخذون العلم كما هو نقلاً عن الأسلاف، بل عمد إلى إثبات النظريات العلمية عن طريق صناعة الآلات والأجهزة الدقيقة وإجراء التجارب العملية لاستخلاص النتائج، وإمعان النظر والبحث والتدقيق في كافة المسائل العلمية التي تمر عليه، وهو الأمر الذي اظهر نبوغه وتميزه بين غيره من العلماء.

وتبحر ابن فرناس أيضاً في علم الكيمياء وقام بإجراء التجارب والتحاليل، وتوصل إلى حقائق علمية لم يسبق لأحد من علماء الأندلس الوصول إليها، ومن تجاربه الناجحة توصله لإمكانية صناعة الزجاج من نوع معين من الحجارة مما سهل على الأندلسيين صناعته من مادة زهيدة الثمن، ونتيجة لذلك انتشرت صناعة الزجاج في بلاد الأندلس وتفوقوا في هذه الصناعة.

اتجه ابن فرناس أيضاً لعلم الفلك والتنجيم فراقب الكواكب والنجوم في مطالعها وأفلاكها ومداراتها ومنازلها، وتمكن من صنع الآلات التي تساعده على رصد حركاتها ومما صنعه تلك الآلة المعروفة «بذات الحلق»، كما أبتكر الميقاته لمعرفة الأوقات وهي آلة توضح الأوقات مثل الساعة في عصرنا الحالي، ومن ابتكاراته أيضاً اتخاذه في دارته هيئة السماء وصور فيها الشمس والقمر والكواكب ومداراتها والغيوم والبرق والرعد فكان ذلك من عجائب الصنعة وبديع الابتكارات.

ابن فرناس «الطائر الآدمي»

عندما يكون الإنسان في عقلية ابن فرناس فليس من الغريب أن يتطلع ذهنه إلى أشياء لم يتطرق إليها أي من البشر قبل ذلك، ومن أكثر الابتكارات التي أبرزت أسم ابن فرناس وارتبطت به حتى عصرنا هذا هو محاولته الطيران والتحليق في الفضاء مثل الطيور، وفي سبيل ذلك قام بدراسة ثقل الأجسام ومقاومة الهواء لها، وتأثير ضغط الهواء فيها إذا ما حلقت، واطلع على خواص الأجسام، وكان لتبحره في العلوم الطبيعية والرياضة والكيمياء فضل كبير في تمكنه من إجراء دراساته هذه.

وبعد أن أكمل ابن فرناس دراساته عمد إلى التجربة العملية فكسا نفسه بالريش الذي اتخذه من شقق الحرير الأبيض لمتانته وقوته، مما يتناسب مع ثقل جسمه، وصنع له جناحين من الحرير أيضاً يحملان جسمه إذا ما حركهما في الفضاء، وتأكد من أن باستطاعته إذا ما حرك هذين الجناحين فإنهما سيحملانه ليطير في الجو، كما تطير الطيور، وبعد أن انتهى ابن فرناس من كافة الاستعدادات جاءت اللحظة الحاسمة وأعلن للناس جميعاً نيته في الطيران وتجمع الناس لرؤيته وهو يحلق.

صعد ابن فرناس بعد أن ارتدى آلته التي صنعها فوق مرتفع وحرك جناحيه وقفز في الجو، وطار في الفضاء بالفعل لمسافة بعيدة، ولكنه ما لبث أن سقط وتأذى في ظهره، وعلى الرغم من عدم اكتمال النجاح لمحاولة ابن فرناس إلا أنه لفت نظر العلماء بعد ذلك لإمكانية الطيران، فكان إنسان متفرد وكتبت محاولته هذه في كتب التاريخ كأول محاولة طيران قام بها الإنسان.

الأديب والشاعر

عرف ابن فرناس كأديب وشاعر وله شعر كثير في أغراض مختلفة، اتصل بالبلاط الأموي فكان شاعرهم كما كان طبيبهم، وعاش في ظل رعاية أمرائهم ونظم لهم الشعر في مختلف الأغراض، كما كان موسيقياً مبدعاً ينظم الشعر ويضع اللحن ويغني به.

من المواقف التي تنم عن مدى براعة ابن فرناس يذكر المؤرخون أنه لما أدخل إلى الأندلس كتاب العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي وصار إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم، عرضه على علماء قرطبة وأدبائها ليوضحوه له، فعجزوا عن ذلك، وصار الكتاب مما يتلهى به في قصر الأمير، وعندما علم ابن فرناس بذلك تقدم إلى الأمير وطلب منه إخراج الكتاب إليه ففعل، ولما قرآه وتدبره علم أنه في علم العروض، العلم الذي ابتكره الفراهيدي وضبط به بحور الشعر العربي، ففك ابن فرناس غوامضه وشرحه لقومه فسهل عليهم دراسة هذا الفن الجميل والاستفادة منه.

وخلاصة القول في النهاية أن عباس ابن فرناس كان عالماً صاحب ذهن متفتح لم يدع علماً يمر دون أن يدرسه ويتحقق من نظرياته ويتبحر به ويجري التجارب ويستخلص النتائج، فكان من أطباء زمانه ودرس المنطق والفلسفة والفيزياء والكيمياء، واطلع على الفنون الرفيعة والصناعات، وتبحر في الأدب والشعر والنحو، وكان متضلعاً في أمور الفلك والتنجيم والرياضيات، فحق القول عنه أنه أحد عباقرة زمانه والذي يندر الزمن أن يجود بمثله.

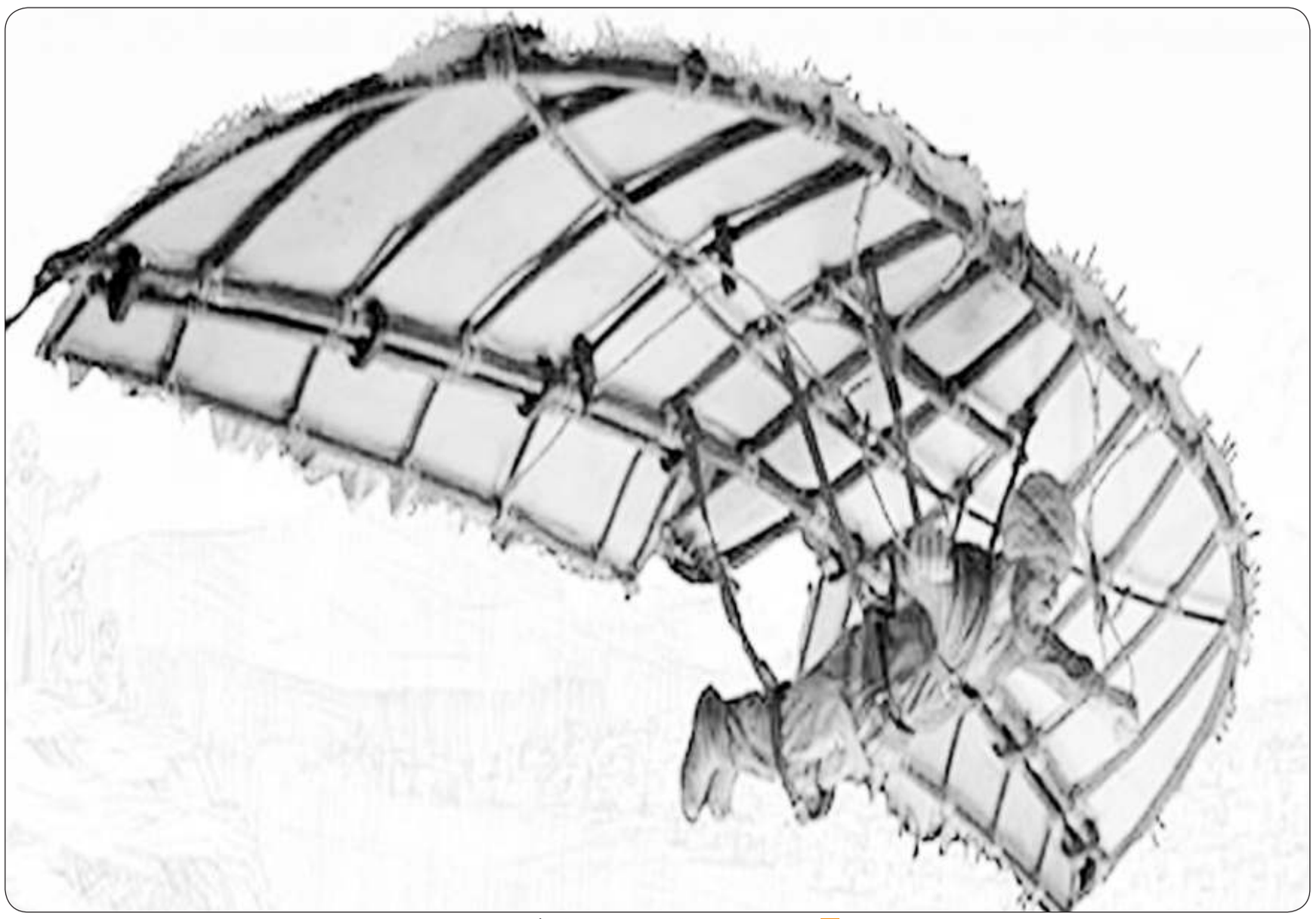

عباس ابن فرناس حقق حلمه بالتحليق مثل الطيور

قام عباس بن فرناس بالطيران من فوق منارة المسجد الكبير بقرطبة

تمثال عباس بن فرناس يتوسط العاصمة العراقية بغداد